الحالمون

ترجمة السيدة الفاضلة « الزهرة »

الحالمون هم الذين أطعمونا في الدنيا جوانب العيش الخصب العريض ، والخير الجم المستفيض ، وأرشدونا إلى مبادرة السوانح ، وفتحوا لنا أمصار الفرص البيض . ولعله لم يخطر لك ببال مطلقاً أن ما تردد فيه طرفك ، وتمدّه من خاص ملكك في هذا الكون الوسيع ، منتسب إلى عطاء حلم رائع تحقق ، ورؤيا مجيدة صدقت ...

أدر الطرف حولك واسأل : مَنْ ذا الذي منحنا النعم المألوفة لدينا ، والصنائع الشائعة بيننا ؟ ومَنْ ذا الذي أسبغ علينا النور ليلاً ، وحبانا بالقدرة على الطواف حول العالم ؟ ومَنْ ذا الذي أباد الوباء وحق الطاعون ، وأعاننا على قهر جميع العال والأدواء ؟

لقد ملأت جميع هذه المواهب الكبيرة صدر العالم ، وتتابعت علينا تتابع القطر على القفر ، فورثناها مع الهواء الذي نستنشقه ، وتلك الصيحة الظافرة تنبعث إلينا من أروقة الزمن قائلة : « وجدتها ! وجدتها ! »

إن أرخميدس لم يقم بمظاهرة هائلة حين باح للعالم بسر الثقل النوعي ، ولكنه قفز من حمامه فجأة ، وراح يركض في طرقات المدينة متهللاً ، ويهيب بالناس قائلاً : « وجدتها ! وجدتها ! »

وكذلك كانت تلك الروح الزخارة ، التي أنعشت دنيا العلم قاطبة ، دون أن تضطرب بحب الكسب والمنفعة الشخصية ، في كيان أي رجل ممن أتحفوا الكواهل بأياديهم التي يفرض لها الشكر ويتحتم ، لأنهم بذلوها في سبيل المصلحة العامة ، وأضافوها إلى حصائل العمران من فيض سجاياهم البارة ، بسخاء نفوسهم الأمارة بالخير ، المطبوعة على المعروف كأنه غريزة فيها تشبه غريزة التغريد في الطير ، وعنصراً من عناصرها يحاكي الجمال والشذى في الزهر ... وكانوا جميعهم سمداء منتبطين إذ مكنوا الانسان من حكومة نفسه ، وضاعفوا قدرته على تصريف أموره والأخذ بنواصيها ؛ وقد حلوا ألوية جهادهم ، وبنود كفاحهم ، وكلمات كبار « المجاهدين » المستميتين من معشر الرومان ، تتدفق من شفاههم ، ولكن بروح من النبل الذي يزن كل ما اختاج من معانيه في حياة أولئك الرومان الغرّ الميامين وكأنهم كانوا يخاطبون الانسانية بلسانهم قائلين :

« نحن الذين نوشك أن نموت موت الايثار والفداء تحيتك يا قيصر ! »

حقاً إن انتصاراتنا الباهرة على ويلات الحياة مسجلة في سير كثير من أولئك المجاهدين البررة . ولئن لم يكن الموت في سبيل العرفان وآيات الجهاد من نصيبهم على الدوام ، فان مثابرتهم الصامتة كثيراً ما كانت محفوفة بمرائر جسيمة تتحيف الصبر وتهد الأركان وتجعل الموت عذباً مستساغاً ؟

وإننا لنعلم أن « وليم هارفي » حين أعلن في محاضراته المتواضعة سير الدورة الدموية في الجسم الانساني ، وفتح الأذهان لأول مرة لتفهم سر من أسرار الوجود العظيمة لم يكن يطمع في منحة أعظم من إقبال الناس على أبحاثه وقبولها بروح العطف ، بيد أن العالم أبى عليه هذه المنحة . وغاليلو لم يتطلب منفعة من اكتشافاته التي جلّت للأفهام حقائق كثيرة في الفلسفة الطبيعية ، بل كان جزاءه التهديد بالتعذيب ، ووجد غنمه الأكبر في نجاته من هول الخازوق والعذراء : آلة التعذيب بمطّ الجسم !

ولقد مات « تيخوبراه » في أحضان الفاقة والشقاء لأنه قشع عن العقول البشرية غيوم الترهات والخزعبلات التي كانت تدفعها إلى الفزع من الأجرام السماوية والكواكب السيارة . وقد أحدث « دارون » وهو في مرتقاه الرفيع ، فوق ذروة تلال « كنت » ثورة عظيمة في العقول لم يسبق لها مثيل في كل ما أحدثه عالم من علماء الطبيعة . بل إن الراهب « مندل » في حديقة صومعته المشمسة ، وبنحله ويازلته قد بلغ حيث لم تبلغ جهود دارون في كل ما توصل إليه لاكتشاف ناموس الوراثة . ومع ذلك فقد لاقى هذان الرجلان الناجزة والعداء « مع أن راهب برن الشيخ » قد أسبغ منناً عظيمة كفلت الغذاء الصالح للانسان والحيوان ، وأدخل على نتاج العالم الحيواني والنباتي تقدماً لم يؤت إليه أي إنسان بل أي جيل من الناس . وكل من يعنى

أن يجيء اليوم بسلالة جديدة من الماشية والأغنام ، أو نوعاً جديداً من الزهر والثمر والبر والحنطة، لابد له أن يتبع النواميس التي اكتشفها وفسرها الراهب الشيخ في حديقته ببلدة «برن» وكل ديون العالم تقصر عن الوفاء بحقوقه التي لم يتقاض لأجلها شيئاً من العالم ، أو يفرض عليه أجراً لها ، بل إنه لم يؤثر نفسه بامتياز من امتيازاتها أو يحتكر حقاً من حقوق اكتشافها، وذلك لأنه كان رجلاً من الرجال الذين يغتذون بالأحلام .

وكذلك كان الحال في الثروة المادية التي تنشط اليوم مئات الصناعات والحرف ، وتوطد دعائم حضارتنا ، ونحن لا نستطيع بحال من الأحوال أن نحصي أياديها لأنها لا تعد ، ولا تقف عند حد . على أن الاستفادة بها والتغني بذكرها هما جل ما يبغيه أولئك الأعلام الذين جدوا وسعوا دون أن يتطلبوا جزاء ولا شكورا في سبيل الانارة والنهوض بالانسانية .

ولقد انتقل العالم من عصر الحديد إلى عصر الفولاذ فعصر الكهرباء واللاسلكي ، وجميع هذه الاكتشافات الأساسية التي غيرت وجه الوجود من عصر إلى عصر قد أغدقوا علينا رجال أفاضوا شعاب برهم وسحب معلوماتهم وذكائهم كعطايا سمحة لأهل جيلهم. فنحن نشيد عمراننا على أسس وضعها أولئك المجاهدون الصناديد الذين اتخذوا من ميادين النزال ومعامع الكفاح مدارس للبحث والتفكير والاستقراء ومعملات للاختبارات والتجارب العلمية . ولقد قدم نيوتن وبابيرامصرهما آلتين من أفضل ما جاءت به مستحدثات العلوم الرياضية فزودوا العلم بقوة عقلية تفوق كل وصف . وقد أثبت الطبيب دالتون تلك الصورة النهائية القطعية لنظريته العجيبة — نظرية تركيب الجوهر الذري . كما وضع العالم الانجليزي بول الأساس الراسخ لجميع الأعمال الباهرة التي تجري الآن في دائرة « استحالة الأقتدار » وقد ورث العلامة العظيم جيمس كلارك مكسويل ثروة طائلة من أمالي الفلسفة الطبيعية فاستغلها في التمهيد لاكتشاف التموجات الأثيرية بعد أن تمكن من إدراك أبعادها وتقدير مساحاتها ومقاييسها . وتناول هنريك هرتز الألماني أعمال ذلك العلامة الانجليزي فتمكن من إشعاع أمواج الكترماجنتيكيه (المغناطيسية الكهربية) بواسطة جهاز كهربائي للذبذبة وجعل العامل الأساسي لانتاج هذه الأمواج الشرر الصغير الذي كان يظهر من ثغرة صغيرة في أداة معدنية فيعبر الغرفة دون أن تكون هناك أية حلقة للاتصال غير الهواء . ولقد انسحق قلب دافيد ادوارد هو ، من جراء الفشل الذي صادفه في تجاربه اللاسلكية ، ولكن جيلاً من الناس الباحثين المستطلعين أفلحوا في تحقيق أحلامهم التجريبية حتى ظهر أخيراً المخترع الايطالي العظيم جوليلمو ماركوني وتناول أبحاث أسلافه ولم يزل بها حتى تمكن من زيادة الاشعاع وتحسينه وتنميته وضبطه ، وتوصل إلى إتمام اختراعه فلم يكد يشارف السابعة والعشرين من سني حياته حتى برهن على مخترعه عملياً وأذاع إشارته اللاسلكية الأولى عبر المحيط الأطلنطيق ، وبذلك أكمل اللاسلكي أهم رحلة في حياته مثبتاً للملأ أنه كان سائراً به في الطريق الموصل إلى ذروة النجاح النهائي بعد أن تجشم صعوبات هائلة وذلل عقبات كبيرة .

ولا شك في أن أغلبنا يعرف عظم ما ندين به لصمام الحرارة « الترمونيكي » الذي اخترعه الأستاذ « فلنج » ولا يخفى علينا أن ذلك الصمام ينبعث من كوكبة (هي المصباح الكهربائي) ولكن كم منا يذكر أن هذه الكوكبة لم تكن لتوجد لولا تلك الأنبوبة المفرغة التي ابتكرها سير وليام كروكس ؟ على أن هذه الأنبوبة التي كانت فكرة تتردد في مخيلة ذلك الرجل المستطلع ، صارت فيما بعد مهداً للخوارق التي بذت جميع ما سبقها من أعمال قوى الطبيعة الغامضة، فقد اكتشف فيها وبوساطتها أشعة «إكس»، وإن من العسير أن نذكر نصف الدهشات التي تأتت من هذه الأنبوبة العجيبة ...

إننا نعيش كل يوم على المواهب الباهرة التي قدمها لنا «هنري كافنديش» الذي اكتشف غاز الايدروجين ، وجوزيف بريستلي الذي اكتشف الأكسجين، والكيماوي الفرنسي لفوازييه الذي علمنا وظيفة التنفس ... ولكننا قلما نفكر في الأحلام الطويلة التي استرسل فيها جميع أولئك الفطاحل ، ولعلنا ننسى أن بريستلي فر إلى أمريكا قانعاً من القنيعة بالسلامة في سبيل كرازته عن الأكسجين ، وأن الفرنسيين قضوا على حياة

لفوازيه بحد المقصلة الجهنمية مجاهرين بأن الجمهورية ليست فى حاجة إلى جمهرة الكيائيين، وأن العدل يجب أن يأخذ مجراه

إن هذه الغيانى التى نجوس خلالها مترامية الأطراف وعرة المسالك ولكنها عظيمة حقاً لأن رجالاً مجدودين عظماء قد عبدوها وأخضعوها لسلطاننا حباً فى العلم والإتقان ، لا طمعاً فى الربح والكسب :

مقاديم وصالون فى الروع خطوهم ... بكل رقيق الشفرتين يمانى
إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم ... لأية حال أم بأى مكان

على أن هذا لم يكن قصارى جهدهم فان أولئك الناس الذين كانوا ينهضون للعمل مبكرين ومن متأخرين ليكتسبوا من الطبيعة أدق أسرارها وغوامضها ويستغلون أعظم قوى افتدارها من أصغر الذريرات الكائنة ، قد رصدوا ساعاتهم للكد دون أن يعرفوا طعماً للراحة؛ وكانوا إذا تمت المعجزة على أيديهم وتمكنوا من استخدام الجوهر الفرد فى هد الرواسى وزلزلة الجبال وفى إفادة العالم — الذى يكونون جزءاً غير منظور منه — يقدمون هذه المعجزة دون قيد ولا شرط، ويطلقونها عليه طلوع الشمس التى تحفظ الحياة على الأرض . ونحن جميعاً نجنى ثمراته ونتقاسمها دون أن نبذل فى سبيل الحصول عليها فلساً واحداً . وهكذا تتتابع فصول تلك القصة العجيبة التى بدأت مذ شرقت أول شعاعة من شعاعات العلم والمحبة تبدد الظلمات الداجية والأطماع الأشعبية من العقل المعجبى والفكر المتوحش القاسى . وإننا لن نجد ما يتلو علينا فصول تلك القصة مراراً وتكراراً، بل إن أفصح من ذلك الذى تحدثنا به تواريخ الطب والجراحة الفائقة عطفاً وحباً ورحمة . فما من مصل مما يستعمل لشفاء الأمراض إلا وينتمى إلى ذلك المصل الواقى الذى منحه للعالم بستخاء دكتور جنّر لحمايتنا من تبريح الجدرى . ولا تجرى عملية عظيمة على يد أحد الجراحين اليوم إلا ونجد الجراح والمريض يلهجان بحمد العزة الالهية من أجل جيمس سيمسون الذى جعل القيام بالعمليات الجراحية الخطيرة ممكناً ميسوراً بفضل اكتشافه جواهر المخدرات التى تفقد الاحساس بالألم . أما لويس باستور الذى علم الناس التحرز من المرض بالتطعيم وحفظ الأغذية والسوائل المعضوية بالتعقيم فلم يتقاض على جهوده غير الثناء والشكران . وجاء جوزيف لستر واتبع أفكار باستور واستخدمها فى محو الألم ودرء السموم عن الأجسام فكان عدد الذين أنقذهم من الموت أكثر من الذين أبادهم نابليون، وضفر للسلم من أكاليل المجد فوق ما ضفرته الحرب لأعظم أبطالها الظافرين . وقضى حياته وهو يكدّ ويجد ويحقق حلمه، وبفضله أصبح ميسوراً للجراحة اليوم القيام بمئة صنوف العمليات وأصبح الطبيب القادر على أداء تلك العمليات يفاخر بما أسدته إليه طريقة لستر من تفادى التسمم بل أصبح ينشرها للملأ فيكبر لها مشاهير الجراحين وينهل من فيضها جماعة الطلاب المتعلمين ويجعلونها قبلة أنظارهم

وأحسن وجه فى الورى وجه محسن
وأيمن كف فيهم كف منعم

ولقد كان لستر يتقاضى مبلغ خمسمائة جنيه من موسر يجرى له إحدى عملياته ، أما الأجر الذى كان يتقاضاه من فقير لاجئ إلى أحد المستشفيات الخيرية فلم يكن يتعدى عبارة «أشكرك ياسيدى» تتدحرج على شفتى ذلك البائس بصوت مختنق متهدج ؛ وكان الرجل العظيم يعود إلى بيته بقلب يطفح شكراً لله تعالى الذى آتاه القدرة على تخفيف بلاء المفلوكين

وإذا الرجال تصرفت أهواؤها ... فهواه لحظة سائل أو آمل
ويكاد من فرط السخاء بنانه ... حب العطاء يقول هل من سائل

بيد أن ظواهر هذا البذل الانسانى العظيم لا تقف عند هذا الحد لأن أولئك الرجال الذين يمسحون عنا أمراضنا لا يترددون فى الخطار بحياتهم دون ريث ولا إمهال

مسترسلين إلى الحتوف كأنما ... بين الحتوف وبينهم أرحام
كأساد موت مخدرات مالها ... بين الصوارم والقنا آجام

ولا يوجد علاج لوقاية من أمراض المنطقة الحارة إلا وقد ابتاعوه لنا بأعمارهم الغالية وأنفاسهم الثمينة ، فكان الواحد منهم يجرب علاجه فى جسمه قبل أن يجربه فى مريض . وتاريخ الطب حافل بآيات الشجاعة والولاء والبطولة التى لا تقل عما تفيض به أخبار أعظم الفاتحين

بل إننا حين نذهب بحديثنا إلى عصرنا الحالى العظيم — عصر

الهندسة العملية وإقامة الجسور والقناطر العجيبة ، وحفر الترع والقنوات المدهشة نجد العالم من ورائها جميعاً، ونجد السفن تجرى من محيط إلى محيط وادعة مطمئنة فى قناة باناما حين كانت الحياة الانسانية لا تساوى قيمة ربع عشرة أيام لعامل عادى ، ولولا أن رجلاً اسمه رولاند روس جلس يحلم ليلة بعد ليلة من خلال منظاره المكبّر ثم عثر أخيراً على البعوضة التى تحمل جراثيم الموت وأخبر العالم أننا نستطيع أن نهزأ بالحمى الصفراء وبالحمى النافضة (الملاريا) لو فعلنا بهذه البعوضة ما فعله باستور بالطعام وليستر بالجراح لما حضرت رعة بناما . وقد جنى مهندسوها وبناتها أرباحاً طائلة من ورائها، ولكن الرجال الذين ابتدعوها فى أحلامهم ورسموا فكرتها وسعوا لتحقيقها لم يأخذوا لأنفسهم شيئاً لأنهم كانوا من ذوى الأحلام وكأن الشريف الرضى كان يعنيهم حين قال

وركب سروا والليل ملق رواقه على كل مغبر المطالع قاتم
حدوا عزمات ضاعت الأرض بينها
فصار سراهم فى ظهور المزائم
تريهم نجوم الليل ما يبتغونه على عاتق الشعرى وهام التمائم
وغطى على الأرض الدجى فكأننا
نفتش عن أعلامنا بالمناسم

وهكذا كان الناس يحلمون ويحققون أحلامهم فصيروا عالمنا أجل وأعظم من عالمهم، ومنحوا العالم قوة ليس وراءها مطلع لحالم؛ ولا فوقها منزع لأسيف ولا مرتقى لهمة ، وأصبح من اليسور للانسان الآن أن يجعل من هذه الحياة الدنيا فردوساً ينقش فيه صورة جنة الخلد ويفرش عليه محاسن النعيم الأبدى

(الزهرة)

العُصور

مجلة النهضة ، والبعث القومى الجديد

اسبوعية وتصدر كل اسبوعين مؤقتاً

مبدؤها :

الجهاد فى سبيل الحرية : حرية القلب ، وحرية النفس ، وحرية العقل ، وحرية العمل ...

والجهاد فى سبيل القوة للاحتفاظ بهذه الحريات لايقاظ العرب والمسلمين للعزة والسيادة والاستقلال

تتبع العصور ، لتعرف المنهج الذى تجاهد فى سبيله ، وراسلها بكل رأى ، وكل نقد ، وكل نصيحة ...

... التعاون الفكرى والأدبى أساس النهضة العلمية والأدبية والاستقلالية

« صدر العدد الأول من مجلة العصور يوم السبت ١٩ نوفمبر مصدقا لما قدرناه لها فى أنفسنا من قوة التحرير وصدق الأسلوب وشرف المنزع وقراء الرسالة يعرفون صاحبها الأستاذ محمود محمد شاكر بقوة الأدب وقوة الدين وقوة الخلق ، فبهيات أن يجدوا فى العصور إلا أثر هذه القوى مجتمعة فى قلمه الرصين واختياره الموفق. وإنا لنرجو للاستاذ الصديق أن يوفقه الله فيما نصب نفسه له من الجهاد الصادق فى خدمة الدين واللغة والثقافة »

« عدد الرسالة ٢٨٢ » « الزيات »

العدد الثانى يصدر يوم الأربعاء { ١٥ شوال سنة ١٣٥٧ / ٧ ديسمبر سنة ١٩٣٨

صاحب العصور : محمود محمد شاكر

الادارة : مصر الجديدة . شارع الاسماعيلية رقم ٤٣ تليفون ٦١٦٧٠